الاجتهاد

مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الاسلامي

العددان السادس والعشرون والسابع والعشرون

السنة السابعة

شتاء وربيع العام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م

رئيسا التحرير

الفضل شلق ورضوان السيد

مدير التحرير المسؤول

محمد السماك

تصدر عن :

دار الاجتهاد للابحاث والترجمة والنشر

ص . ب . : 5581/14 ــ بيروت ــ لبنان ــ تلفون : 866666 ، 862205

ساقية الجنزير ــ بناية برج الكارلتون ــ الطابق الثاني

صعودُ الأمبراطوريات وانهيارها(*)

ڤرنان بـرودـيل

I

لا يسعنا رسم صورة شاملة وواضحة للكيانات السياسية المتوسطية في القرن السادس عشر من دون أن نرجع قرنين اثنين إلى الوراء، أي إلى وقت كان المتوسط فيه مجالاً للمدن، الدول ـ المدن. فالدول الإقليمية المتفاوتة في تجانسها وفي أهميتها، والتي تمددت في اتجاه الشواطىء المتوسطية، كانت في الأصل امتدادات لمدن قوية فقدت في القرن الخامس عشر مقومات حياتها المستقلة. لكن هذه الأزمة، أزمة المدن ـ الدول، لم يُقدّر لها أن تُنجِز وحدة إيطالية لم يكن موعدها قد حان بعد. وكانت هذه الأزمة قد عصفت في أنحاء المتوسط كله، بسبب عجز الدول المدينية، لهشاشتها وضيق رقعتها، عن القيام بالأعباء السياسية والمالية المترتبة عليها. كنتيجة لهذا العجز ظهرت الدول الإقليمية المترامية الأرجاء والكثيرة السكان والقادرة على التصدي لأعباء الحروب الحديثة الكبرى. لكن هذه الدول الإقليمية الناشئة كانت قد أرست ركائز قوتها، في الأصل، في الأرجاء الداخلية البعيدة عن الشواطىء المتوسطية حيث كانت تقوم المدن. أما في إيطاليا فقد أدى غنى المدن وقوتها إلى المحافظة على الانقسام والضعف السياسيين، الأمر الذي آل إلى انتصار الأتراك في حروبهم ضد البندقية، على الرغم من تفوق إيطاليا وتقدمها التقني. وهذا

(*) هذه فصولٌ موجزةٌ من خواتيم كتاب ڤرنان بروديل الشهير: «المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني». وقد أوجز هذه الفصول وترجمها مروان أبي سمرا، الذي كانت دار المنتخب العربي ببيروت قد نشرت له قبل سنتين إيجازاً لعمل بروديل.

ما يفسر هشاشة البنى السياسية الإيطالية.

1 ـ في أصل الإمبراطوريات

كان من نتائج الأزمة المدينية الطويلة ولادة إمبراطوريتين اثنتين في جهتي المتوسط: الإمبراطورية الإسبانية والإمبراطورية العثمانية اللتان حفَّ بولادتهما حسٌّ صوفي متأجج.

شكل كل من نهوض الحس الديني وعودة فكر الصليبية في إسبانيا القرن الخامس عشر، قاعدة الاندفاع الإمبراطوري لقيام الوحدة الإسبانية. وقد كان الهابسبورغ وقبلهم الملوك الكاثوليك أول من عمل في سبيل تلك الوحدة. فما قام به هؤلاء الملوك، بعد حرب المئة عام، كان استجابةً لإرادة برجوازيات المدن الباحثة عن استتباب السلام الضروري لازدهار تجارتها. أما اتجاه منطقة كاستيليا الإسبانية إلى التحالف مع أراغون فلم يكن صدفة بقدر ما كان خياراً متوسطياً حال دون الوحدة مع البرتغال وأتاح وحدة شبه الجزيرة الأيبيرية. وكما كانت الصوفية الإمبراطورية في أصل الوحدة الإسبانية، كانت من وجهٍ آخر ضروريةً لاحتلال غرناطة في العام 1492، وللتوجه نحو شمال إفريقيا الذي أُرجىء واستبدل بالاتجاه نحو إيطاليا قلب المتوسط ومركزه والتي كان الإسلام يهددها. هكذا أصبح الملك الكاثوليكي الإسباني بطل الصليبية الجديدة. وبعد أن خلف شارل كنت ملك إسبانيا فرديناند في سنة 1516 غدت إسبانيا موقعاً ثانوياً في الإمبراطورية، بسبب اتكاء هذه الأخيرة على إيطاليا وعلى البلاد الواطئة اللتين كانتا تقتسمان الثروة الأميركية المتدفقة وتبحثان عن أسواق جديدة لتوظيفها في الصناعة والتجارة، وذلك عوضاً عن الارتكاز إلى إسبانيا نفسها الواقعة على طرف أوروبا. لذا كانت تبدو الإمبراطورية مع ذلك الملك أوروبية أكثر منها إسبانية. ولو لم تقم إسبانيا بتلك المهمة الإمبراطورية لكانت فرنسا، ربما، أقدمت على القيام بها، لأنها، أي فرنسا، كانت منذ العام 1494 تتجه نحو هذا القدر الذي أحبطته الظروف، وربما أحبطه تخلف اقتصادها ومميزات حكمها ومزاجها وتعلقها بالقيم المؤكدة. فقيام إمبراطورية كان قدراً أوروبياً وليس قدراً إسبانياً فحسب. لذا

اتخذت الفكرة الصليبية في عهد شارل كنت معنىً ومدىً أوروبيين شاملين، ونحت المملكة الإسبانية نحو توحيد المسيحية في مواجهة الأتراك الذين كان سلطانهم سليمان القانوني نظيراً لشارل كنت في الجهة الأخرى من البحر.

لم يستمر هذا الوضع في عهد فيليب الثاني في النصف الثاني من القرن السادس عشر، لأن الامبراطورية راحت في أثناء حكمه تتمركز في إسبانيا ويقل انخراطها في أوروبا، لتتجه نحو المحيط الأطلسي. وقد رجّحت الثروة الأميركية خلف المحيط هذا الاتجاه. هكذا تحولت كاستيليا إلى مركز متروبولي، فيما أصبحت إيطاليا والبلاد الواطئة مناطق ثانوية في الامبراطورية، فنتج عن هذا التبدل عداء إيطالي للإسبانيين. ثم ما لبثت المواجهة مع الشمال البروتستانتي أن برزت بهدف السيطرة على المحيط الأطلسي الذي برز، منذ ثمانينات القرن السادس عشر كمركز للكرة الأرضية في أعقاب ازدياد حجم المعادن الأميركية الثمينة المتدفقة إلى العالم كله. وفي الوقت نفسه الذي كانت تتجه فيه المملكة الإسبانية نحو الغرب، كان العثمانيون في الجهة الأخرى من المتوسط يديرون ظهورهم لهذا الأخير ويتجهون نحو الصراع مع إيران. لقد كانت الامبراطوريتان تبتعدان عن المتوسط بالوتيرة نفسها، فيما كانت تدق في قلب المتوسط ساعة تراجع الامبراطوريات.

في الجهة الأخرى من المتوسط كانت هنالك ثلاثة قرون من الجهد الدؤوب والصدامات الطويلة في أصل العظمة الامبراطورية العثمانية. فسلالة بني عثمان نهضت بين مصادفات المعارك على حدود آسيا الصغرى المتقلبة، حيث كان الدين والحروب لا ينفصلان. وفي أعقاب غزو التركمان الصامت والبطيء لآسيا الصغرى أصبحت تركيا بلداً إسلامياً في ظل تحريضٍ ودعاية غريبين لاعتناق الدين الإسلامي، بعدما كان سكانها من الروم الأرثوذكس. أما سهولة فتح العثمانيين لبلاد البلقان فيعود إلى أن شبه الجزيرة البلقانية كان نهباً لانقسامات بين البيزنطيين والصرب والبلغار، الأمر الذي أتاح اندفاع الفتح الجديد وإزاحة كبار الملاكين في طريقه. لكن سيطرة العثمانيين على غرب البلقان الجبلي كانت شديدة البطء وشكلية في وجهها الغالب. وهذا كله

لم يتيسر له النجاح بمعزل عن شق الطرق وبناء الحصون وإيكال تنظيم شؤون الغزو للمدن التي أخضعها العثمانيون أو بنوها أو حصنوها.

وإذا كان الفتح ـ الغزو التركي قد تم على حساب الشعوب التي أُخضعت في البداية (آلاف الصربيين بيعوا كعبيد في أسواق البلدان المسيحية، بعد معركة كوسوفو)، فإن المنتصر العثماني لم يكن ينقصه الحس السياسي، في أيام محمد الثاني على وجه الخصوص، وهو السلطان الذي قدم تنازلات لليونانيين وفتح بوجههم أبواب القسطنطينية التي افتتحت في العام 1453. لذا اتخذت شعوب شبه جزيرة البلقان مواقع لها إلى جانب المنتصر وأعادت إحياء مآثر الامبراطورية البيزنطية. لكن إعجاب الغرب المسيحي بالامبراطورية العثمانية وانبهاره بها لن يصرفنا عن ملاحظة كره المسيحيين لهؤلاء «الكفار». فلا الغزو ولا التوسع العثمانيان كانا في أصل الاكتشافات الكبرى، بل إن هذه الأخيرة هي التي أزاحت أنظار الغرب قليلاً عن الشرق، فاستطاع العثمانيون التقدم غرباً من دون صعوبات كبيرة. ثم إن الحدث الأهم من احتلال القسطنطينية في التاريخ العثماني كان احتلال مصر وسورية اللتين أتاحت سيطرة العثمانيين عليهما، فضلاً عن جنيهم خراجاً مرتفعاً منهما، مشاركتهم في تجارة الذهب الإفريقي وفي تجارة الشرق العالمية. لذا غدت الامبراطورية وسيطاً تجارياً إجبارياً بين الهند والغرب، هذا مع العلم أن مصر كانت المصدر الأساسي للقمح والأرز والفول. لكن هذه الملاحظات كلها لن تصرفنا عن النظر إلى الامبراطورية من الداخل لفهم نقاط ضعفها وقوتها وترجرجها. لقد كان فن الحكم العثماني يستند إلى أسلوب عيش وإلى تراث معقد يختلط فيه الديني بالاجتماعي، وتاريخ الامبراطورية شمل قروناً وتجارب متلاحقة ومتفاوتة ومتناقضة. إنه ذلك النسق الإقطاعي الذي خلق أرستقراطية عقارية منقسمة ويصارع بعضها البعض الآخر من غير أن يجمع بينها غير السلطان، وذلك وفق وتائر داخلية شديدة التعقيد.

كان صعود الامبراطوريات في المتوسط يتلخص بصعود العثمانيين في الشرق وصعود الهابسبورغ في الغرب. لكن القرن السابع عشر أظهر على نحو جلي تراجع

هاتين الامبراطوريتين. كانت مأساة المتوسط سياسيةً في الدرجة الأولى، ابتداءً من القرن السادس عشر. فليس صحيحاً أن الصدفة كانت وراء اكتشاف أميركا وثورة الأسعار وولادة الامبراطوريات، وليس صحيحاً أيضاً أن خيط القوة الوحيد هو التطور التدريجي للرأسمالية، على نحو ما يرى (J. Schumpeter)، أحد كبار الاقتصاديين. فثورة الأسعار كانت سابقة على التدفق الكثيف للذهب الأميركي، ونمو الدول الإقليمية كان سابقاً على اكتشاف القارة الجديدة. وإذا كانت مناجم العالم الجديد قد دخلت في الحسبان فلأن أوروبا في الأصل كانت تمتلك القدرة على استثمارها. أما إذا افترضنا أن مناجم القارة الجديدة المكتشفة لم تكن سهلة الاستغلال، فإن قوة الدفع في الغرب كانت ستجد لنفسها متنفَّساً في الشرق الأقصى وفي الذهب الإفريقي وفي فضة أوروبا الوسطى. فالدولة مثلها مثل الرأسمالية نتاج تطور متعدد ومتشابك، والظروف الطويلة المدى تحمل في داخل حركتها المرتكزات التي تقوم عليها السياسة.

2 ـ ضعف الدول

في ظل صعود الامبراطوريات برز «الموظفون» على مسرح التاريخ السياسي. وفي كلا الامبراطوريتين، الإسبانية والعثمانية، كان الموظفون من أصول اجتماعية متواضعة: من أصول مسيحية ويهودية في الامبراطورية العثمانية، فمن بين 48 وزيراً (والوزير في الدولة العثمانية كان يسمى الصدر الأعظم) تعاقبوا على الحكم في اسطمبول كان خمسة وزراء فقط من أصل تركي وعشرة من أصلٍ مجهول و 33 من أصول مسيحية. أما في إسبانيا فكان الموظفون يتحدرون من صغار العائلات المدينية ومن العائلات الفلاحية. وفي بداية القرن السادس عشر كان يتهيأ حوالي 70 ألفاً من طلاب الجامعات في إسبانيا للانخراط في أجهزة الدولة. وعهد السلطان سليمان القانوني كان في آن عهد حروب ناجحة وبناءات عدة ونشاط تشريعي قانوني ضخم في مدينة القسطنطينية. وعلى الرغم من الاختلاف في أنماط الحكم والإدارة، مثير هو التشابه بين الامبراطوريتين. فعمليات سلخ الموظفين أو اقتلاعهم من بيئاتهم المحلية ليست غريبةً عن دول القرن السادس عشر كلها. ففي تركيا كانت فئة الموظفين في غالبيتها من الإنكشارية الذي انتُزعوا صغاراً من بيوتهم وعائلاتهم المسيحية في البلقان.

وموظفو الامبراطورية الإسبانية غالباً ما كانوا يُنقلون من مكان إلى آخر في أرجاء الامبراطورية الواسعة، فينقطعون في ذلك عن أصولهم وروابطهم المحلية. لكن سرعان ما بدأت الرشوة تتفشى في صفوف هذه الفئة الجديدة من الموظفين، فأصبحت تُنال الوظيفة، شيئاً فشيئاً، بالبيع والرشوة، في كلا الامبراطوريتين: في الامبراطورية العثمانية تفشت عمليات نهب هائلة يقوم بها الجهاز الإداري من قمته حتى قاعدته. وفي الامبراطورية الإسبانية ظهرت فئة كانت الوظائف مصدر غناها وثرائها الفاحشين. لكن الملفت أن ثروات الوزراء في الدولة العثمانية كانت تنتقل في أعقاب موتهم إلى أيدي السلاطين. لكن هذه الثروات سرعان ما بدأت تجد ملجأ لها في المؤسسات الخيرية (الوقف) التي كانت تتيح للعائلات الاستفادة من جزء منها، بعد أن تكون الدولة، وعلى رأسها السلطان، قد شاركت الموظفين في عمليات النهب التي كانوا يقومون بها.

ساهمت الرشوة في انحلال الامبراطورية الإسبانية بعد موت فيليب الثاني، كما ساهمت أيضاً في انحلال الامبراطورية العثمانية بعد موت السلطان سليمان القانوني. أضف إلى الرشوة تبذير أموال كل من الدولتين في البذخ والترف. وفي هذا السياق تكفي الإشارة إلى الاحتفالات المهيبة الباذخة التي كانت تقام في أيام الأعياد إبان عهد السلطان مراد الرابع، فيما كانت المجاعات والحروب الانفصالية تقصم ظهر السلطنة. هكذا بدأت دول الامبراطوريات تصطدم بمئات المحاولات والاتجاهات الاستقلالية المحلية المتواترة على أطرافها: غرناطة، البرتغال، ومنطقة الباسك في الامبراطورية الإسبانية، ومحاولات الأمراء المحليين الدائمة للانفصال عن اسطمبول في إماراتهم البعيدة النائية. واستبداد الأمراء والولاة المحليين ربما يفسر تضخم كل من نابولي واسطمبول، حيث كان البذخ والتبذير والدعة عماد حياة الفئات العليا الحاكمة، فيما لم يكن شيء يقي الناس في المقاطعات من عسف الأمراء المحليين وظلمهم.

كان النظام الضريبي بدوره علامة ثانية من علامات ضعف الدول. فالدولة الامبراطورية المترامية الأطراف لم تكن على علاقة مباشرة بالمساهمين في تغذيتها

بالضرائب، هذا في حين كانت فيه هذه الدول لا تمتلك خزينة أو مصرفاً تابعاً لها. ففي إسبانيا شجع تشتت عائدات الدولة ومدفوعاتها أصحاب البيوتات التجارية على تطويع النظام الضريبي ليكون في خدمة مصالحهم. وفي الدولة العثمانية كانت لرجال الأعمال يدٌ طولى على مالية الدولة.

في نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر بدأ الانحلال يضرب أجسام الدول الكبيرة. من الخارج كانت الامبراطوريات تبدو قوية ومزدهرة، لكن القوة والازدهار هذين ما كانا يتخطيان حدود العاصمتين الامبراطوريتين، مدريد واسطمبول. ومنذ نهاية القرن السادس عشر بدأ الغربيون يحلمون بتقاسم الامبراطورية العثمانية التي عصفت فيها الثورات واجتاحتها العصابات من الجزائر حتى بلاد فارس، ومن بلاد التتار حتى مصر. لكن لحظة تحقق هذه الأحلام لم تكن قد حانت بعد، لأن «الرجل المريض» لم يكن قد شارف على الموت فوق فراش الاحتضار الذي ظل زمناً طويلاً مستلقياً عليه من دون أن يتمكن من استعادة قوته.

على هذا النحو دار دولاب التاريخ لتراجع الدول الكبرى مفسحةً المجال لبروز الدول الصغيرة: فرنسا هنري الرابع، إنكلترا أليزابث، هولندا المتمركزة حول أمستردام، وألمانيا التي نعمت ببحبوحة اقتصادية منذ العام 1550. إنها دول ذات مساحةٍ صغيرة ويمكن جباية ضرائبها وإدارتها بمهارة. إنه أيضاً زمن انحطاط المتوسط، لكن ليس انحطاطه فحسب.

II

إذا أهملنا التفاصيل والاستثناءات المحلية والفرص الضائعة على كثرتها والاضطرابات الكبرى التي كانت مأساوية أكثر منها عميقة، إذا أهملنا هذا كلّه واكتفينا بالأساسي والعام، بدت لنا مجمل المجتمعات المتوسطية في القرن السادس عشر متشابهة في ارتكازها إلى قاعدة زراعية وفي تطوّرها البطيء وفي تأخرها عن كل من السياسة والاقتصاد. ففي ذلك القرن لم تشهد المجتمعات المتوسطية إعادة نظر حقيقية في أسسها. والصعوبات المالية الكبرى التي

واجهت النبلاء لم تقوَ على تقويض سيطرتهم ونفوذهم. والدول الحديثة بدورها لم تقوَ على القيام بمهماتها ولم تكتمل كثورة اجتماعية، فاكتفت بالمساومة والتعايش. والبرجوازية استمرت في خيانة نفسها ولم تتعرف على نفسها كطرف اجتماعي مستقل وفاعل. أما قلق الشعب وغضبه فكان ينقصه وعي ثوري حقيقي.

كانت فئات النبلاء في البلاد المسيحية والإسلامية تحتل على حدٍ سواء موقعاً أول في الحياة السياسية والاجتماعية، محتفظةً لنفسها بوسائل الترف وتبذير الثروة وتبديدها. وذلك من طريق اعتياشها على النظام الإقطاعي وامتيازاته. وحدها المدن الكبرى والساحات التجارية في مناطق اغتنت باكراً في البلاد الواطئة وفي بعض المناطق الإيطالية، استطاعت أن تشذ عن هذه القاعدة العامة. لكن هذا الاستثناء لم يكن يشكل غير بؤر صغيرة في مجالي أوروبا والمتوسط، حيث كانت الدول في صراعاتها مع الأسياد تحاول على نحوٍ دائم المحافظة عليهم إلى جانبها فيما هي تغذي انقساماتهم. فالدول لم تكن قادرةً على بسط سلطتها على المجتمعات من دون لجوئها إلى التواطؤ مع طبقة مسيطرة. وفي القرن السادس عشر لم تكن فكرة خلق نظام اجتماعي جديد قد نضجت بعد. والنبلاء والإقطاعيون كانوا يستفيدون حتى أقصى الحدود من رسوخ العادات والتقاليد ومن قوة المراكز التي يشغلونها ويتوارثونها منذ زمن طويل. هذا إذا صرفنا النظر عن ضعف الدول وعن فقر المخيلة الثورية في ذلك القرن.

غالباً ما يُقال إن القرن السادس عشر أحال الإقطاعيين إلى بؤساء، وأن النظام الإقطاعي تهاوى بفعل انخفاض قيمة النقد وبفعل اكتشاف المعادن الأميركية الثمينة، وكأن الرأسمالية كان لها فعل الأسيد في تحويل الأطر الاجتماعية. لكن الواقع لم يكن أبداً على هذه الصورة. صحيح أن حال كثرة من النبلاء قد تدهورت، لكن الصحيح أيضاً أن وزن النبلاء الإجمالي قد ازداد رسوخاً، لأن امتيازاتهم المفروضة على الفلاحين وحقوقهم عليهم وعلى أراضيهم ظلّت ساريةً على حالها. أما الإقطاعيون فقد استفادوا من التوسع الزراعي ومن استثمار أراضٍ جديد بنتيجة النمو الاقتصادي والتزايد السكاني اللذين عرفتهما

أوروبا في بداية القرن السادس عشر. والأسياد كانوا بدورهم مسيطرين على تسويق القمح والصوف بفعل امتلاكهم قطعان المواشي الكبيرة. وإذا كانت العائدات القديمة، ذات الطابع الإقطاعي، قد تدنت، فإن قيمتها ظلّت تتمتع بوزن بارز. والنبلاء حافظوا على علاقتهم الحميمة بالأرض وعلى عائداتهم العقارية متجاوزين عاصفة ثورة الأسعار، لكن ليس من دون خسائر. وها هي ذي الدولة الحديثة عدوّتهم اللدود، تحافظ من وجهٍ آخر على حمايتهم بوصفهم شركاءها. فهي قد أخضعتهم لطاعتها بهدف استخدامهم وسيلةً للحكم والسيطرة وإخضاع العامة في المناطق التي تقوم فيها أراضيهم وقصورهم. وفي نهاية عهد ملك إسبانيا فيليب الثاني كانت الفئة العليا من النبلاء لا يتجاوز عدد أفرادها الخمسمائة نسمة، فيما كان عدد أفراد مختلف فئات النبلاء يقارب نصف مليون نسمة. وهذا يعني أن بين هؤلاء النبلاء عدداً من الفقراء والبائسين الذين كانوا يسعون إلى العيش على صورة نبلاء من دون حيازتهم الوسائل المادية التي تتيح لهم أن يكونوا نبلاء فعليين. وقد حدث أن بعض المدن منعت أمثال هؤلاء النبلاء من دخولها. لكن الأوضاع العامة السائدة آنذاك كانت تبيح لعموم النبلاء الحق في حيازة نصف المراكز الإدارية في بلديات القرى المجاورة. بالطبع لم يكن المجتمع يخلو في تلك الحقبة من صراع طبقات كانت مأساوية أحياناً، لكن الصراعات والثورات من توسكانا إلى ميلانو ومن جنوى إلى البندقية... آلت كلها إلى انتصار النبلاء.

1 ـ خيانة البرجوازية

كانت البرجوازية المرتبطة وراثياً، منذ القرن السادس عشر، بخدمة الملك، تعيش دائماً على حافة الضياع. فهي ما أن كانت تغتني حتى تمل مجازفات الحياة التجارية وتتجه نحو الأعمال التي توفر لها الريوع وشراء الأرض وحيازة ألقاب النبالة. ذلك لأن نمط عيش النبلاء بكسله واسترخائه وفخامته، كان يستهويها على نحو دائم. لذا مالت في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى شراء الأرض والعيش في كنف القيم التي تنجم عن اقتنائها. وليس من المبالغة في شيء الحديث عن إفلاس البرجوازية وخيانتها حتى في قلب المدن الإيطالية التي شهدت النهضة الحديثة. أما في إسبانيا فقد كان العمل اليدوي والتجارة

محتقرين ومن نصيب اليهود، كما كانت التجارة البسيطة من نصيب المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية بعد سقوط غرناطة في سنة 1492، فيما كانت الفئات العليا من التجار تضم كثرةً من اليهود معتنقي المسيحية. صحيح أنه كان هنالك أسبانيون بين كبار التجار، لكن البرجوازية كانت محاصرةً بالنبلاء من الجهات كلها. أما الوضع في إيطاليا فكان شديد التعقيد. فالبرجوازية الفلورنسية كانت برجوازية مثقفة نشأت فى ظل التطابق بين النهضة الثقافية والفنية والتطور الاجتماعي من التجارة إلى الصناعة إلى البنوك، الأمر الذي يشير إلى قيام نظام برجوازي متكامل. لكن شيئاً فشيئاً بدأ البرجوازيون يتحوّلون إلى نبلاء، فكان إصرارهم على شراء الأرض مقدمةً لشرائهم الألقاب النبيلة التي أتاحت لهم الانخراط في النظام الإقطاعي الذي لم يستبعدهم بل استوعبهم. فالبرجوازية، بهذا المعنى، خانت نفسها خيانةً لا واعية، لأنها لم تكن تعي نفسها كطبقة برجوازية، بقدر ما كانت تطمح للوصول إلى صفوف الارستقراطية. لذا لم يفوّت أمير ولا دولة في القرن السادس عشر فرصة بيع ألقاب النبالة وشرائها. فعصر العملة المزيفة كان أيضاً بالقدر نفسه عصر النبالة المزيّفة. هكذا لم يولّد القرن المذكور طبقة برجوازية، بل ولّد فئات جديدة قدّمت مساهمتها في النظام القائم.

من هذه الزاوية، وعلى عكس ما هو شائع، ليس من تضاد بين الواقع العثماني والواقع الأوروبي. فتعدّد الحلول للمشكلات والأزمات التي تعيشها مجتمعات زراعية ودول أولية غير مكتملة لم يكن متوافراً. وفي المجتمع العثماني يمكن الحديث عن أربع فئات متعاقبة زمنياً من النبلاء، كانت الأخيرة منها أكثرها فساداً وطغياناً وتخريباً لأجهزة الدولة، بعد أن ساد سلطانها في نهاية القرن السادس عشر. أما أولى هذه الفئات فكانت تلك التي نهضت في الأناضول عشية الانتصارات العثمانية وغداتها. إنها فئة إقطاعية وعبودية في آن وكانت تمتلك حرية واضحة حيال السلطان حين كانت الأرض تباع وتشترى من دون مراقبة الدولة. أما ملكيات الوقف التي كانت تشرف عليها مؤسسات خيرية وتديرها، فغالباً ما كانت تستثمرها وتشرف على إدارتها فئات عائلية تتوارث المناصب والمواقع في تلك المؤسسات. الفئة الثالثة برزت في مطلع القرن الخامس عشر في أرجاء الامبراطورية العثمانية كلها، خصوصاً في بلاد

البلقان حيث كان الفتح العثماني كناية عن تحرير للفلاحين. لكن ذلك لم يحل لاحقاً دون تشكل فئة عليا من النبلاء الذين كانوا يتقاضون رواتب مرتفعة وفرت لهم حيازة ملكيات كبيرة جداً تحت ستار مؤسسات الوقف، الأمر الذي حمل محمد الفاتح على مصادرة هذه الملكيات، وحمل سليمان القانوني على حصر تعيين كبار الموظفين باسطمبول وحدها، من دون أن تحول هذه الإجراءات دون توسّع الملكيات الكبيرة. الفئة الرابعة برزت مع توسع الملكيات الكبيرة وبلوغه حدّه الأقصى في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وقد حمل توقف الفتوحات التركية النبلاء على استغلال الفلاحين لمراكمة ثرواتهم، ثم ما لبثت الدولة أن أقامت نظام الالتزام في تحصيل الضرائب بالتزامن مع التضخّم النقدي وارتفاع الأسعار وقيام النبلاء بنهب أموالها. وكان من نتائج ما تقدم بروز أرستقراطية جديدة استتبعت صغار النبلاء ثم همشتهم. أما البرجوازية المدينية التجارية فغالباً ما كانت الفئات غير الإسلامية إما من اليهود الذين طردوا من إسبانيا أو من منافسيهم الأرمن في القرن السابع عشر. وهذا ما أرغم الدولة على أن تصبح رهينة في أيدي شبكة من كبار الممولين اليهود والأرمن.

2 ـ البؤس والعصابات

يختلف المتوسط عن الشمال الأوروبي في أن الحروب التي وقعت في هذا الأخير والمسمّاة حروباً دينية كانت كنايةً عن سلسلة من الثورات الاجتماعية المتعاقبة، في حين أن المتوسط لم يعرف ثورة اجتماعية فعلية واحدة غيّرت الأنظمة القائمة فيه. فالاضطرابات التي كانت تحصل في أنحاء المتوسط في كل سنة وكل يوم، بسبب تكرارها وازدياد عددها، لم تعد تثير انتباه أحدٍ ولا اهتمامه. هذا فضلاً عن أن الأحداث الهامة ظلّت غامضة ولا نعرف عنها شيئاً. وإذا ما أمعنّا النظر في ركام العصيانات والتمرّدات والحروب التي حصلت في مدنٍ عدة، خصوصاً في المدن الإيطالية، فسوف تختلط أمام أبصارنا الحروب الدينية بحروب الفقراء وانتفاضاتهم، بأفعال السرقة وارتكاب الجرائم وغارات العصابات. فهل يمكن، إذن، انتشال هذه الاضطرابات التي لا يمكن عدّها وإحصاؤها من ركام الأخبار الضائعة والمبهمة ومن غبار الحوادث المشتة، وإدراجها في سلك تاريخ اجتماعي واضح ومقبول؟ لا بد

من أن نعتقد في إمكانية القيام بمثل هذا الأمر، بدليل أن النظرة الأولى السريعة التي ترينا الفوضى وعدم الانسجام في سلسلة هذه الأحداث، سوف تنجلي عن انتظام يلابسها ويقيم التراسل والانسجام بين بعضها والبعض الآخر. فحيث لم يكن الحديث يجري إلا عن مجرمين ضالّين حلّت عليهم لعنة الله، وحيث كانت السرقة تعمّ في مدن ابتداءً من ساعات الليل الأولى، كان مسرح الحياة الاجتماعية، من وجهٍ آخر، نهباً لصراعات وحروب اجتماعية لا نهاية لها ولا حصر ولا عدَّ، على الرغم من رخصها وفظاعتها ومن الفوضى التي تلابسها، كانت تصدر عن أهواء وتناقضات شديدة العمق. لكن هل نسمي هذا كلّه صراع طبقات؟ في الحقيقة يمكننا أن نطلق عليه هذه التسمية إذا ما قمنا بضرب من الصفح عن الثأر والكذب والعدالة المزيّفة التي كانت تلابس هذه الصراعات وتغذّيها. أما إذا كان المقصود بصراع الطبقات أن يعي المتصارعون الحقيقة الطبقية لما يقومون به، فإن حال تلك الصراعات لن يكون واضحاً على هذا النحو إلا لمؤرّخ يتأمّلها بعيني القرن العشرين ومفاهيمه. وإلا ما معنى أن يكون النصف الأول من القرن السادس عشر نهباً للاضطرابات والانتفاضات المتلاحقة، فيما تراجعت هذه الأخيرة وخمدت حدتها في النصف الثاني من القرن نفسه، من دون أن ينجم عن ذلك تغيرات اجتماعية واضحة أو فعلية. إنها ثورات وانتفاضات كانت تنفجر آنياً وموضعياً ثم تخمد وتتراجع، من دون أن يكون المستهدف منها أصحاب الامتيازات وحدهم، بل الدولة، صديقة الكبار وجامعة الضرائب من غير رحمة ولا هوادة.

وفي ظلّ غياب انفجارات اجتماعية شاملة يبرز شكل صامت من البؤس ينجم عنه تكاثر الفقراء والمشردين والتائهين وقطاع الطرق والمتسولين والمجانين والمتبطلين. والأضواء التي يسلّطها التاريخ على هؤلاء نادرة، بحيث لا يمكن الفصل بين قسوة كلٍ من الأغنياء وأصحاب السلطان وبين ظاهرة الإفقار. والسبب الأساسي في ذلك يكمن في تزامن الازدياد السكاني مع التراجع الاقتصادي وتضافرهما، الأمر الذي حمل المدن الأوروبية كلها على تنفيذ إجراءات صارمة تتيح لها التخلّص من فقرائها ومشرديها ومتبطليها ومتسوليها الذين كانت شوارعها تغصّ بهم. وقد نجم عن ذلك ما يشبه لعبة الشرطي

والسارق التي ظلّت تتردد كمشهد دائم بلا بداية ولا نهاية في تلك المدن. ثم ما لبثت مشكلة الفقر هذه أن تجاوزت المدن وانتقلت إلى الدول على مستوى أوروبا كلها. فأعمال السلب واللصوصية وقطع الطرق لم تكن جديدة على المتوسط، لكنها توسّعت وتفشت وتفاقمت في غضون القرن السادس عشر. وفي كل مكان من المجتمعات المتوسطية انتشر العنف مقنعاً بأوجهٍ سياسية واجتماعية واقتصادية، في نابولي وفي البندقية، كما في كل من حلب والإسكندرية. فأعمال النهب وقطع الطرق التي كانت تقوم العصابات بها، كانت كناية عن عمليات ثأرٍ تستهدف الدول القائمة والحامية للنظام السياسي والاجتماعي السائد. لذا كان السكان يغتبطون بهذه الأعمال الخارجة على القانون ويرون فيها ثأراً من العدالة العرجاء. أما ملجأ رجال العصابات فكان المناطق الحدودية والبعيدة، والجبال، حيث تضعف سلطة الدولة التي غالباً ما كانت تلجأ إلى مصالحة أولئك الخارجين على قانونها وخداعهم أو حملهم على الانخراط في جيشها. هذا ولم يكن رجال العصابات وقطاع الطرق من أصولٍ فلاحية غير معدومة العلاقة بكل من الأسياد والنبلاء والإقطاعيين فحسب، بل إن الفئات المتنازعة من هذه الشرائح الأخيرة كانت تجد في رجال العصابات وقطاع الطرق عوناً لها في صراعاتها بعضها مع البعض الآخر وفي صراعاتها مع الدولة. فأبناء العائلات النبيلة الذين أصيبوا بانهيار اقتصادي، غالباً ما كانوا يشكلون عصب هذه الحروب الاجتماعية المقنعة. لذا كانت العصابات أرستقراطية وشعبية في آن معاً. فهي وليدة البؤس والكثرة السكانية وحياة المدن المنقسمة فئاتها الاجتماعية بين أغنياء لا حدَّ لثرواتهم وفقراء معدمين لا حدَّ لفقرهم. إنه البؤس الذي كان سبباً في عدم تبلور ثورات اجتماعية، والذي سيصيب على نحوٍ تدريجي الدول والمجتمعات والحضارات كوباء لا رادَّ له. لماذا؟ ألأن المجتمعات المتوسطية أخفقت في توزيع منتجاتها وثرواتها وفرح العيش فيها أم لأن شعوب البحر استهلكت مخزونها واستنفدته، أم لأن العالم كلّه والمتوسط معه كان يتّجه نحو تأخر وتراجع مذهلين على عتبة القرن السابع عشر؟؟

III

الحضارات هي شخصيات المتوسط الأكثر تعقيداً وتناقضاً لامتلاكها خصائص متعارضة: فهي أخوية ليبرالية من وجه أول واستبدادية شرسة من وجه ثانٍ، فضلاً عن أنها مسالمة ومحاربة في آن معاً، وتمتلك ثباتاً مذهلاً يلابسه التموج والحركة، ويعود الفضل لمارسيل موسى في إظهار الخصائص الحراكية للحضارات، مهملاً التشديد على استمراريتها وثباتها. فالحضارات في طبقاتها أو أعماقها أو أغوارها السحيقة القدم التي لا قاع لها، وفي علاقاتها البنيوية والجغرافية، تمتلك تاريخاً في غاية البطء، الأمر الذي يتيح لها تجديد وجوه من حياتها الاجتماعية على نحو شبه كامل، من دون أن يطال التغير أو التجدد خصائص بناها العميقة والسحيقة القدم. كأنها في هذا، وفيما هي تعبر التواريخ، تبقى في مكانها وتنتصر على الزمن. وكما تداخِلُ الثبات وتلازمهُ، فإن كلاً منهما (الحركة والثبات) يفسر الآخر ويكمّله. فلنحذر إذن من الذين يدّعون معرفة الأصول والقوانين كلها حذرنا نفسه من الذين ينفون كل تغير واستعارة واقتباس. وفي المتوسط كل شيء كان عرضةً للتبادل والانتقال والاستعارة، من الناس إلى الأفكار إلى أنماط العيش والمعتقدات وأساليب الحب وأشكال السكن والأخلاق والمآكل. ويكفي في هذا المجال أن نعدد أنواع الخضار والفواكه والأشجار التي انتقلت إلى المتوسط من كافة أصقاع العالم، لتنتقل منه تالياً في اتجاهات شتى. وكثيرة هي أخبار انتقال البشر من مجتمع إلى آخر، ومن حضارة إلى أخرى. فبالآلاف انتقل المسيحيون إلى بلاد الإسلام واعتنقوا الدين الإسلامي إلى درجة راحت معها الحكومات تحول دول انتقال أبناء مجتمعاتها، حتى أنها في القرن السادس عشر عملت على استعادة أبنائها الضالين. أما العداء بين الديانتين المسيحية والإسلامية فلم يبق حاجزاً لا يمكن اختراقه، لأن الناس لا يأبهون بالحدود وبالدول وبعقائدها، بسبب ضرورات الملاحة والتجارة وصدف الحروب والخيانات. لكن الحضارات، على الرغم من هذا التبادل والاختلاط والانتقال والاقتباس، تبقى منفصلةً ومحتفظةً بشخصيتها العميقة والثابتة. صحيح أن هناك مناطق مزيج وخليط كأبواب المشرق التي كانت تتمازج فيها الديانات

والأجناس والأخلاق على اختلافها، على نحو يحملنا على عدم الاعتقاد بثبات الحضارات حين نتأمل في مشاهد الحياة في كل من القسطنطينية وجنوى وبرشلونه والإسكندرية أو نتخيلها. لكننا سوف نكون مخطئين في اعتقادنا أن المتوسط برمته أو بحذافيره كان مجالاً للاختلاط والتمازج اللذين لم نكن نجدهما إلاّ في مرافئه وفي مدنه التجارية التي كلما ابتعدنا عنها نجد أن العناصر المختلفة والمتنوعة التي يقوم عليها التمازج والاختلاط أو يفترضها متمايزة، منفصلة ومعزول واحدها عن الآخر.

يحوي المتوسط ثلاث حضارات هائلة، ثلاث مجموعات ثقافية، ثلاث أنماط أساسية في الاعتقاد والتفكير والعيش والأخلاق والمآكل. . . متجسدة في ثلاث شخصيات لا نهاية لأقدارها وكانت دائماً قائمةً منذ قرونٍ وقرون، متجاوزةً حدودها وحدود الدول التي لا تشكل إلا لباساً لها. وهذه الحضارات هي الأقدار الوحيدة ذات النفس الطويل والتي يمكن تتبعها من دون انقطاع عبر تقلبات الزمن وأحداث التاريخ المتوسطي.

الحضارة الأولى هي الحضارة الغربية، وعلى الأصح اللاتينية أو الرومانية. إنها الحضارة الأشد مقاومة بين حضارات المتوسط. فهي ما كانته الامبراطورية الرومانية بمركزها روما التي ظلت مركز العالم اللاتيني حتى بعد أن صار كاثوليكياً. الحضارة الثانية هي الحضارة العربية ـ الإسلامية. والغرب والإسلام هما كالهر والكلب، يجمعهما تعارض عميق يقوم على التنافس والعداء والاقتباس. إنهما عدوان متكاملان. الأول ابتكر الصليبية وعاشها، فيما ابتكر الثاني الجهاد وعاشه. أما الحضارة الثالثة فهي الحضارة اليونانية التي لا تكشف اليوم عن وجهها في وضوحٍ، بل تحافظ فقط على جوهرها.

وكما يمكن التعرف على الحضارات من إشعاعاتها ومن قدرتها على الاقتباس، يمكن أيضاً التعرّف عليها مما ترفض اقتباسه. وليس غير الطوباويين من يحلم في ذوبان الحضارات والديانات. فالديانات أكثر ما في الحضارات تفرداً ومقاومة. وأبرز الأمثلة على هذا الأمر هو رفض الكاثوليكية للبروتستانتية ولإصلاحها، وهي التي عمّت، في القرن السادس عشر، الشمال

من إنكلترا إلى ألمانيا فالبلاد السكندنافية. فالشمال وأوروبا المتوسطية كانا أبداً عاملين وثيقي الصلة ومتفارقين، ولكلٍّ منهما سماؤه وقلبه وروحه. لذا لم تحظ اللوثرية والكالفينية باهتمام العالم اللاتيني الذي ابتدع شيئاً خاصاً به هو ما نسميه بالإصلاح المُضادّ. وهذه الحضارة اليونانية ترفض الانضمام إلى الكنيسة اللاتينية في القرن الخامس عشر، رغم أن الموت كان يتهددها. وقد تجلى ذلك الرفض مجدداً في القرن التالي حين فضل العالم اليوناني تسليم أمره للأتراك بدل خضوعه للكاثوليكية، لأن خضوعه لها كان يعني موت الأرثوذكسية التي وجدت في تسامح الأتراك الديني خلاصاً لها. وهذا ما يفسر «الخيانة» التي كان الغرب يتّهم اليونان بها.

وتبقى الحضارات عبر الأزمنة المتعاقبة تحمل سيرة حيزها الخاص الذي يمكن أن تبتعد أطرافها عنه تبدلاً وتغيراً، ليبقى القلب في البؤرة المركزية منها حياً ثابتاً في الزمان. يغترب الأفراد أو «يخونون» ويعبرون الحدود، لكن الحضارات تستمر منغرسة ولا يمكن أن تنتقل بحذافيرها من مكان إلى آخر، الأمر الذي يقيم حدوداً أو فضاءات ثقافية مذهلة في استمرارها وفي استعصائها على الاختلاط والتمازج. وهذا الثبات يجذّر الحضارة في ماضٍ سحيق القدم. فكما لم تبدأ الرومانية مع المسيح فإن الإسلام لم يبدأ مع النبي محمد، فضلاً عن أن الأرثوذكسية لم تبدأ بتأسيس القسطنطينية. وحين طرأ تغير يطال الأعماق التي تفترضها الأديان فإن الحضارات تلون قيمها القديمة وتستمر في تشكيل جوهرها. فالحضارة اليونانية التي ولدت في القرن السابع قبل الميلاد وانهزمت في أيام الرومان، عادت إلى النهوض بعد خمسة قرون مع تأسيس القسطنطينية واستمرت حتى القرن التاسع عشر، أي حتى قيام صليبية جديدة بمساعدة الأرثوذكس الروس والأوروبيين كان هدفها تحرير بلاد البلقان.

وما يصح في العالم الأرثوذكسي يصح أيضاً في كل من الشخصيتين الحضاريتين الأخريين: الرومانية والإسلامية. ومما لا شك فيه أن منبت الشخصية الحضارية الإسلامية هو صحراء شبه الجزيرة العربية. لكن مداها

أو أفقها هو البلاد التي افتتحها الفرسان العرب بسهولة فائقة. فقلب الإسلام هو الحيز الضيق الممتد بين كل من مكة وبغداد ودمشق والقاهرة، لكنه أكد نفسه كوريث فعلي للشرق الأوسط وتراثه، حيث امتد قديماً العالم القرطاجي الذي كان مهيأً لاستقبال حضارة الإسلام أكثر من تهيُّئه لتمثل القانون الروماني. وعلى الرغم من أن الدين يشغل مركز القلب من كل نسق ثقافي، فإن الحضارة ليست ديناً فحسب. لذا هضم الإسلام، فضلاً عن التراث الإبراهيمي، ثقافات وسلوكات وعادات تعود إلى أزمنة سحيقة. وكما هي الحضارة الغربية مشتقة ومطعمة .أو من الدرجة الثانية، كذلك هو الإسلام حضارة اشتقاق وتطعيم ومن الدرجة الثانية أيضاً. وربما الحضارة الصينية وحدها حضارة من الدرجة الأولى، مكتفية بذاتها.

لكن كل واحدة من حضارات المتوسط الثلاث هي في الواقع مجموعة من الحضارات الفرعية التي يجمعها قدر واحد. فالبلقان يتألف من ثلاث مجموعات ثقافية. وفي إسبانيا يبرز الفرق جلياً بين جنوب وشمال. وفي شمال إفريقيا واضح هو الحد الفاصل بين إفريقيا العرب، أي تونس اليوم، وبين إفريقيا المغرب الأوسط الجبلي. فإفريقيا العرب، أي تونس، قائمة على أرض منبسطة تتاجر مدنها، منذ القرن السادس عشر، مع الاسكندرية والقسطنطينية وتقيم صلات وثيقة مع لغة المشرق وثقافته. وهذا ما يحمل الكثيرين على تشبيه مدن تونس، على نقيض مدن المغرب، بمدن الشرق: القاهرة وبيروت. والجغرافيا هي التي حضرت منذ أزمنة طويلة لإقامة هذا الحد بين إفريقيا العرب وإفريقيا المغرب. وهذا المثال يبرهن أن لكل حضارة حيزها الجغرافي الخاص الذي يفرض عليها خصائصه ويرسم حدودها. إنه حيز يلجم الإنسان الذي يصنعه بنفسه بإتقان ومن غير توقف.

1 ـ تداخل الحضارات وثباتها

تبدو الحضارات في آمادها الطويلة كنايةً عن واقعاتٍ تاريخية منغرسة بصلابة في حدودها الجغرافية، لكنها في مدى تاريخي قصيرٍ نسبياً تعيش صراعات عنيفة بعضها ضد البعض الآخر. وها هو ذا المتوسط في القرن السادس عشر حافل بمثل

هذه الصراعات: الإسلام المتمثل بالامبراطورية العثمانية سيطر على البلقان المسيحية الأرثوذكسية. وإسبانيا الملوك الكاثوليكية اجتاحت غرناطة، آخر معاقل الإسلام في إسبانيا. وفي المشرق ظلت السيطرة التركية «خارجية» على نحو سيطرة الإنكليز على الهند في الأمس القريب. وفي إسبانيا أيضاً قام المسيحيون بسحق المسلمين من دون رحمة. هذان السلوكان يخضعان على نحو أساسي للشروط الديمغرافية: الكثافة السكانية في البلاد المسيحية والفقر الديمغرافي في الامبراطورية العثمانية.

في القرن السادس عشر كان العثمانيون يبسطون سيطرتهم على جهة من المتوسط، وهي سيطرة شملت معظم المساحة التي كانت تقوم عليها الحضارة البيزنطية. وقد استمرت هذه السيطرة حوالي 500 سنة. وبالرغم من طغيان النزعة القومية الحادة على مؤرخي البلقان، يمكننا استخلاص تجربة هذه الحقبة الاستعمارية الغنية، بحيث يمكن التمييز بين منطقتين في البلقان. هنالك أولاً الغرب البلقاني والجنوب اليوناني، حيث لم تستطع الحضارة الإسلامية التوغل عميقاً، فظل اعتناق أهل هذه المناطق للدين الإسلامي شكلياً. والسبب في ذلك هو الطبيعة الجبلية لتلك المناطق، على المستويين الجغرافي والبشري. وهي طبيعة وقفت، على نحو دائم، حاجزاً في وجه الغزوات «التحضيرية». المنطقة الثانية هي الشرق البلقاني، حيث تكثر السهول كما في بلاد البلغار. وهنا يصعب ألا نلحظ أثر الحضارة الإسلامية التي نقلها الأتراك أثناء إقامتهم في تلك المناطق السهلية التي ما تزال تتلون حتى اليوم بألوان آسيوية تبديها مشبعةً بمعالم الشرق في أزقة المدن وأسواقها. لكن شعوب هذه المناطق لم تذب في الامبراطورية العثمانية، على الرغم من أنها كانت مرغمة على الخضوع لسلطانها وعلى التعايش والحوار معها في سبيل الحفاظ على بقائها واستمرارها، الأمر الذي أتاح لها (لشعوب الشرق البلقاني) المحافظة على العناصر الأساسية من هويتها: الدين واللغة اللذان شكلا شرط النهضة اللاحقة. فالحضارات الناضجة لا تخضع إلا على نحو شكلي أو برّاني، ثم لا تلبث أن تعي ذاتها مع هبوب رياح قوية متشددة، فتنهض لأن التغير لا يطال بناها العميقة.

على الجهة الأخرى من المتوسط وفي القرن نفسه (السادس عشر) جاء سقوط غرناطة في يد الإسبان الكاثوليك تتويجاً لانتصارات كانت قد بدأت تتلاحق منذ القرن الحادي عشر في كل من أراغون وفالنسيا والأندلس، كوجهٍ من وجوه الصراع الديني، أي الحضاري، بين المسيحية والإسلام. وقد اتخذ هذا الصراع شكلاً استيطانياً ضد شعب «الموريسك»، أي المسلمين، من دون أن يكون مثل ذلك الصراع قابلاً للمساومة. فبلنسية الإسلامية انتقلت من الاستعمار الاستيطاني إلى استعمار استقلالي في ظل سيطرة الاقطاعيين المسيحيين الذين حوّلوا شعبها، الموريسك، إلى جيش البروليتاريا الفلاحية، بعد تمزيق نسيج حياته الاجتماعية. وهذا ما حصل في المناطق الإسلامية الأندلسية المتطورة والغنية التي راحت تنهزم في فترات متلاحقة بسبب قلق مدافعيها وضعفها السياسي ونزاعاتها الداخلية. أما ما تبقى من الموريسك في المدن التي أصبحت مسيحية فأقاموا في ضواحٍ أو غيتوات تقع على أبواب المدن، على نحو ما حصل في مدريد. لذا نجد كل ما يمكن أن يقال في الاستعمار مجسداً في إسبانيا: النهب، الاعتداء، القتل، الاستبداد، المجازر، والاضطهاد الديني... ومثل هذا الاستعمار ليس ثمرة تحولات اقتصادية واجتماعية، بل هو نتيجة مباشرة للسيطرة السياسية. في كاستيليا وغرناطة أرغمت الدولة المسيحية المنتصرة المسلمين على اعتناق الدين المسيحي. وفي كاتالونيا تم طرد المسلمين على نحو شامل. وبعد سقوط غرناطة لم يبق رسمياً مسلمون في إسبانيا، لأنهم أرغموا كلهم على اعتناق المسيحية. وهذا كله لم يمنع فيليب الثاني من الحكم بالإعدام على حضارة الموريسك بأكملها، فقام بمنع أهل هذه الحضارة من ارتدائهم أزياءهم وأقفل حماماتهم والبيوت التي كانت تقام فيها احتفالات إسلامية سرية. وذلك فضلاً عن منعه المسلمين من التحدث باللغة العربية. وكانت انتفاضات كلٍ من غرناطة وإشبيلية من نتائج هذا الاضطهاد الشامل الذي انتهى بالمجازر والسبي والأشغال الشاقة بعد مصادرة أملاك المسلمين وطردهم منها وإسكان 12 ألف عائلة فلاحية مسيحية فيها. ولأن هذا كله لم يحل دون تكاثر من تبقى من الموريسك في إسبانيا، فقد أمر الملك بإجبار الرجال منهم على الخدمة في

البواخر للحؤول دون تناسلهم. والحقد على الموريسك لم يتوقف إلا بعد طردهم نهائياً من إسبانيا كلها بين العام 1609 والعام 1614، ويقدر المؤرخون عدد الذين طردوا بـ 300 ألف نسمة.

لم يكن الحقد العنصري مصدر السلوك الإسباني وموجهه، بل كان الحقد الديني أو الحضاري في أصله. وما يعنينا من أمر هذا السلوك ليس محاكمة إسبانيا في ضوء عواطف راهنة، ولا معرفة ما إذا كانت إسبانيا محقة في سلوكها ذاك أم غير محقة. هذا في حين أن المؤرخين كلهم يتعاطفون مع الموريسك. لكن علينا أن نتساءل لماذا فعلت أسبانيا ما فعلته بالموريسك؟ لأن الموريسك واجهوا الحضارة الغربية المفروضة عليهم بالرفض متوسلين المحافظة على دينهم وأزيائهم وروابطهم العاطفية التي كانت تشدهم إلى عوالم الإسلام. وفي المقابل كان يستحيل على إسبانيا التعايش مع مركز إسلامي يقوم في قلبها ـ وهذا اعتراف بعجزها ـ فوجدت نفسها في مواجهة خيارين اثنين: إما اقتلاع ذلك المركز من جذوره، وإما التعايش معه بغية دمجه وهضمه على نحو شامل. وقد تأرجح السلوك الإسباني بين هذين الحدين، لتختار أخيراً الحد الأكثر جذرية أو راديكالية: اقتلاع الموريسك ونفيهم من المدن أولاً ومن الأرياف ثانياً. لكن ما حصل لم يمحُ أثر الإسلام من إسبانيا التي تشربت كثرةً من العناصر الحضارية الإسلامية. ويجدر بنا القول في هذا السياق إن الحروب «الاستعمارية» كلها هي في الأصل صدام بين حضاراتٍ أكثر تطلباً من المجتمعات التي تنتمي إليها، حضارات تتغذى من الحقد والغضب ولا تعرف الرحمة، الأمر الذي يتيح للعنف الأعمى الطغيان على كل حس عقلاني. هكذا هو حال الموريسك، ليس إلا فصلاً من صراع حضاري يستمر قروناً طويلة بين الشرق والغرب اللذين يتبادلان الغنى والفقر، التفوق والتأخر، ويتناوبانهما.

حصل الانقلاب الأول لصالح الغرب في عهد الإسكندر المقدوني، فكانت الهيللينية كأول «أوروبة» للشرق الأوسط ومصر استمرت حتى العهد البيزنطي. وفي نهاية عهد الامبراطورية الرومانية انهار الغرب فورثه الشرق المسلم

والبيزنطي، أي الشرق الذي أخذ يصدّر ازدهاره في اتجاه الغرب المتخلّف أو المتأخر. لذا لا يكتمل تاريخ العصر الوسيط الغربي من دون إحصاء الكتب العربية التي قرأها مثقفو القرن الثالث عشر. ولذا ليس غريباً أن نجد مصادر إسلامية في الكوميديا الأهلية التي وضعها دانتي. وفي عهد الصليبيين بدأ انقلاب جديد بالحدوث إبان السيطرة المسيحية على البحر وطرقه التجارية، فاتخذت رحلات التجار والقناصل ورجال البعثات العلمية والدينية شكل غزو غربي للشرق. ثم جاء القرن السادس عشر حاملاً معه رياح تفوق الغرب على الإسلام، جرياً وراء المغامرة والتجارة والأرباح، في حين كان فيه الأتراك بحاجة إلى حرفيين وحائكين وبحارة وأخصائيين في بناء السفن وصناعة المدافع. وربما كانت الكثافة السكانية في البلاد المسيحية وعدم انفتاحها جيداً على المغامرة الأميركية في أصل توجّه أنظار المسيحيين نحو الشرق، وفي أصل إغراء من كانوا على صلة وثيقة بالشرق بالتخلّي عن دينهم ونكرانه. ففي شمال إفريقيا كان الفرار من الحصون الإسبانية ينتشر كالوباء. ومن صقلية غالباً ما كانت السفن تتجه نحو تركيا حاملةً مجموعاتٍ من المسيحيين المرتدين. ثم ما لبثت العدوى أن وصلت إلى رجال الدين. لذا راجت في سنة 1630 دعوة هدفها عودة الكبوشيين المقيمين في المشرق إلى بلادهم في الغرب، خشية اعتناقهم الدين الإسلامي.

في الاتجاه المعاكس، أي من الشرق إلى الغرب، لم يشهد التاريخ حركة انتقال مشابهة للأولى. ففيما كان الأتراك يشرعون أبواب امبراطوريتهم للغرباء القادمين إلى ديارهم، على نحوٍ غير مقصود أو لا واعٍ، كان المسيحيون يغلقون أبواب بلادهم. فاللاتسامح المسيحي، ابن الكثافة السكّانية، كان يدفع البشر خارجاً. لذا كان المطرودون من اليهود في العام 1492، ومن الموريسك في غضون القرن السادس عشر، يتجهون إلى ديار الإسلام. وبهؤلاء المطرودين كانت تركيا تستكمل ميلها إلى الأخذ بعناصر من التربية الغربية. لكنها ما أن كانت تمتلك واحداً من عوامل التفوّق الغربي حتى يستجد عامل آخر. هذا فضلاً عن أن النقل الثقافي شبيه بالتطعيم الذي لا يحالفه النجاح على نحوٍ دائم. إلا أن «الرجل المريض» صمد في وجه الغرب، وسبب ذلك

الصمود كان انقسام الغرب، على الرغم من أن القرن السابع عشر كان حافلاً بمشاريع الصليبية الجديدة.

2 ـ قدر اليهود

في خضم الصراع والحوار والتنافس بين هاتين الحضارتين (القائمتين في الشرق وفي الغرب) يبرز اليهود بوصفهم خصماً صغير الحجم، ولكنه يمتلك إمكانات هائلة وغريبة. فحين كان يضطهد أميرٌ اليهود كانوا هم لا يعدمون أميراً آخر يحميهم. وحين كان يخونهم نسق اقتصادي كانوا يسارعون في لجوئهم إلى غيره. وحين كانت تقذف بهم حضارة ما خارج حيّزها الجغرافي كانوا لا يعدمون حضارة أخرى تستقبلهم. فاليهودي يمتلك، عادة، القدرة على استخدام الضغوطات السياسية والمالية الملتوية التي يحسنها ويجيدها، أي أنه يتّقن استخدام أسلحة الضعفاء: الاستكانة والخضوع والحيلة، فضلاً عن الشجاعة والبطولة. وهو يمتلك أيضاً قدرة عجيبة على التأقلم حيثما حلَّ وأقام، من دون أن يتخلّى عمّا يسمّيه علماء الاجتماع والأنثربولوجيا «الشخصية الأساس». والعناد والرفض اليائس هذان هما اثنان من العلامات الرئيسية في القدر أو المصير اليهودي.

هنالك قطعاً حضارة يهودية، ولكنها من الخصوصية إلى حدٍ يعدمنا التعرّف على حضارة أو شخصية أصلية فيها. مع العلم أنها تقاوم وتخضع، ترفض وتقبل، تشع وتقتبس. إنها تحوي الخصائص التي تشكل شخصية حضارية، ولكنها غير منغرسة ولا متجذرة ولا تخضع لمعطيات جغرافية ثابتة. وما يدعونا إليه الجسم اليهودي الموزّع كبقع زيت على صفحة مياه الحضارات العميقة الغور، هو القبول بوجود حضارات شتات كثيرة: الأرمن منذ عهد النهضة، مسيحيو شمال إفريقيا حتى القرن الثالث عشر، النساطرة في آسيا.... إلخ. وهذه الجزر ما أن كانت تتلامس أو تتلاقى حتى يتغير كل شيء بالنسبة لها. لذا نحت الجماعات اليهودية في إسبانية إبان العصر الوسيط نحو تشكيل ما يشبه أمّة طائفية. وفي بولونيا ابتداءً من القرن الخامس عشر أدّى تعاظم عدد اليهود وقوة شوكتهم إلى تشكيل أمة وكيان يهوديين. أما حين لم تكن تُتاح لليهود مثل هذه

الفرص، فإن وحداتهم الأولية كانت تتصل عن طريق التعليم والمعتقد والانتقال الدائم للكتب ورجال الدين والمشردين والمتسولين. لكن اليهود لا يشكلون عرقاً، لأن جماعاتهم الموزعة مرتبطة بيولوجياً بالشعوب التي تقيم في كنفها قروناً طويلة. وذلك بفعل تمازج الأعراق، ولأن الجماعات اليهودية غالباً ما نشأت من اعتناق جماعات محلية للدين اليهودي، ولم تعش منغلقة على نفسها. ثم إن اليهود لم يعيشوا دائماً على انفراد ولا حملوا دائماً شاراتٍ تميّزهم ولا سكنوا دائماً في أحياء خاصة (الغيتو)، حتى حين كانوا يرغمون على الإقامة في تلك الأحياء المغلقة عليهم، لم يكن الأمر يخلو من مخالفات. وفي إسبانيا كان اليهود مختلطين بالأرستوقراطية أكثر من اختلاطهم بالشعب. وفي الأمبراطورية العثمانية كانت كثرة منهم تمتلك عبيداً مسيحيين.

لا، ليست روابط الدم ـ وهذه الرابطة ليست متوفرة ـ هي ما حملت الجماعات اليهودية على البقاء والاستمرار، بل هو عداء الآخرين لها وعداؤها للآخرين ما أتاحا بقاءها واستمرارها. والمسألة اليهودية ليست مسألة ديانة فحسب، بل هي نتيجة مجموعة متراصة من المعتقدات والعادات والموروثات. لكن الجماعات اليهودية كانت مرغمة دائماً على الاتصال والحوار مع محيطها، وأحياناً في ظروف مأساوية، حين كان ينقلب من حولها مشهد الحضارة المسيطرة. ففي إسبانيا تناوبت على اليهود حضارتان هما المسيحية والإسلامية. وكان شأنهم في إسبانيا شأنهم في هنغاريا إبان القرن السادس عشر، أي ورثة حضارات قُدّر لهم نشرها في هذا الاتجاه أو ذاك. لكن وراثتهم هذا لحضارات مختلفة كانت تجعل منهم أحياناً فئات متباينة ومتناقضة، على نحو ما حصل لهم في البندقية بين العام 1516 والعام 1633، حين ظهرت ثلاث جماعات يهودية تقيم كل واحدة منها في غيتو منفصل عن الآخر.

لقد حُكم على اليهود أن يكونوا كبار حرفيي التبادل. فها هم، حتى ما بعد القرن الثالث عشر، محترفو نقل الفكر والعلوم العربية إلى الغرب. وفي القرن السادس عشر كانوا نقلة تقنيات وصناعات كثيرة من الغرب إلى الدولة العثمانية

التي حملوا إليها فن الطباعة، بعد أن كانوا ناقلي هذا الفن من ألمانيا إلى كل من البرتغال وإسبانيا. فما كانت مدينة تطرد اليهود منها حتى كانوا يبحثون عن مدينة أخرى يحطون فيها رحالهم. وبحثُهم الدائم عن موطىء قدم لهم نشرهم بالضرورة في كل مكان لذا أدار اليهود ظهورهم للأرض وزراعتها منذ قرون ليصبحوا ممولين وتجاراً من تجار المشرق، وكان لهم فيها دور مالي بارز، فضلاً عن التزامهم تحصيل الضرائب التي كانت تفرضها على سكانها. وفي ألمانيا كان للممولين اليهود دورهم البارز. وفي البرتغال كانوا أسياد تجارة السكر والتوابل. وفي هولندا كان لهم دورهم في ازدهار أمستردام، ثم تخطّت شباكهم هذه الأخيرة فوصلت إلى أميركا. هذا كلّه لا يعني أبداً أن اليهود كانوا أغنياء كلّهم، ولا يعني أيضاً أنهم «اخترعوا» الرأسمالية، بل يعني أنهم أدركوا كيف يتأقلمون مع الجغرافيا والظروف المتحركة للأحوال الاقتصادية. وبفعل توجّههم الدائم نحو المناطق النامية للاستفادة من ازدهارها، كانوا يساهمون في ذلك الازدهار. أما الحقد عليهم والعداء لهم فسببهما أنهم كانوا يشكّلون شبكة تجارية هامة في العالم الذي انتشروا في أرجائه كلها.

3 ـ لنفهم إسبانيا

إن العلامة الأساسية في التاريخ اليهودي هي التلازم بين الاضطهادات والمجازر والطرد وبين حركة الظروف وتقلّبات الحياة الاقتصادية. فالإجراءات ضدّهم كانت تُتخذ في فترات التراجع والأزمات الاقتصادية في الغرب. هذا ما حصل في إسبانيا خلال فترة التراجع الطويلة إبان حكم الملوك الكاثوليك. وفي إيطاليا اتخذت في حقهم إجراءات الطرد بين العام 1350 والعام 1450. لكن على العكس من ذلك كانت أحوال اليهود في أثناء الحقبات الطويلة التي كانت تشهد ازدهاراً ونمواً اقتصاديين، على نحو ما حدث في القرن السادس عشر الذي كان «قرن التجار اليهود»، كما يُقال «قرن التجار الجنويين»، نسبة إلى مدينة جنوى الإيطالية. فالقدر اليهودي يستحسن فهمه بمعزل عن سياق التاريخ العالمي وتاريخ الرأسمالية. أما حصرنا تتبع تقلّبات قدرهم في المثال الإسباني فربما يجعل المسألة أكثر وضوحاً، شرط عدم إقحام جدالات اليوم وعواطفه وحساسياته في نقاش هذه المسألة، فضلاً عن تجنّب الأخذ بأحكام

الأخلاقيين المبسّطة التي ترسم خطاً فاصلاً بين الصالح والسيء وبين الخير والشر. إنني أرفض اتهام إسبانيا بالإجرام في حق اليهود، لأنه ليس من حضارة في التاريخ كلّه قامت بتفضيل الآخر على نفسها. أقول هذا في الوقت نفسه الذي أقف فيه، ومهما حصل، إلى جانب جميع الذي يُسلبون حريّتهم وممتلكاتهم وتنتهك أجسامهم وتُحتقر معتقداتهم، أي إنني أقف إلى جانب كل من اليهود والموريسك والبروتستانت في إسبانيا. لكن موقفي هذا، فضلاً عن أحاسيسي ومشاعري، لا علاقة لها ألبتة بحقيقة المشكلة التاريخية المطروحة. فليس عقلانياً ولا مجدياً الحديث عن إسبانيا بوصفها بلداً «توتاليتارياً عنصرياً» في القرن السادس عشر. فما جرى فيها كان يجري في الوقت عينه في كلٍ من فرنسا وألمانيا وإنكلترا والبندقية.

إنها الظروف، هذه القوة العمياء، التي تتحمل جزءًا من مسؤولية ما جرى. فالحضارات تعيش آماداً طوالاً تكون فيها مرتعاً لحركات جماهيرية تدفعها جاذبية التاريخ في اتجاه منحدرات لا يملك أحدٌ التأثير فيها ولا يكون أحدٌ مسؤولاً عن سقوطها فيها. ومن أقدار الحضارات أن ترسم «خط القسمة» الذي تحدّث عنه ميشال فوكو وأن تخضع للعمل الشاق على الذات. والحضارة الأيبيرية خضعت لذلك العمل الشاق أكثر من غيرها، بوصفها شكلاً خاصاً من أشكال الحضارة الغربية. فبعد أن غمرت واجهتها وأطرافها مياه حضارة غريبة هي حضارة الإسلام، كان على إسبانيا، لكي تعود أوروبية من جديد، أن تصنع من نفسها، في القرن الخامس عشر، مسيحية محاربة ومصارعة، وأن ترسخ «خط القسمة» بينها وبين الديانتين الدخيلتين: الإسلامية واليهودية، رافضةً بذلك أن تكون إفريقيا أو المشرق. ولربما كان عليها أن تبقى جسراً بين إفريقيا وأوروبا، كما كان قدرها الجغرافي والتاريخي في قرون غابرة، وكما جاء في أطروحتي عنها في الطبعة الأولى من هذا الكتاب. ولكن كيف كان يمكنها أن تكون كذلك في الوقت الذي كان فيه الحيّز الإسلامي يتعرّض لغزو مسيحي إسباني، وتتعرّض هي نفسها (إسبانيا) لغزو أوروبي؟! ثم لم تلبث الاكتشافات الكبرى أن أقامت حداً نهائياً بينها وبين قدرها المفترض، واضعةً إسبانيا في مركز العالم الحديث، أي في واجهة غزو أوروبا للعالم كله.

كانت اللحمة القوية التي عاشتها إسبانيا في القرن الخامس عشر لحمة شعب كان الأضعف والأقل لمعاناً وذكاءً وغنىً في مواجهة الحضارة الإسلامية. ثم ما لبث أن تحرّر وأصبح الأقوى في مواجهتها من دون أن يمتلك يقيناً عميقاً بقوّته، فاستمر في الصراع وأقام محاكم التفتيش تحت سطوة خوف ظلامي يتملّكه. لذا علينا أن نقبل صاغرين بأن كل حضارة تسير في اتجاه قدرها، شاءت ذلك أم أبت. وعلينا أن نقرّ أيضاً أن أقدار الحضارات تتقاطع، لكن من دون أن يفهم بعضها البعض الآخر. هكذا فيما كانت إسبانيا تسير في اتجاه الوحدة السياسية التي لم يكن في وسعها أن تتصورها إلا على صورة وحدة دينية، كان بنو إسرائيل يسيرون في اتجاه قدرهم: الشتات. وهو قدر وحدوي أيضاً، لكن على مستوى العالم كلّه. أما الشيطان فيظل دائماً الآخر، الحضارة الأخرى. تقبل الحضارات أن تفصح عن حقيقتها بنفسها ولنفسها، ولكنها ترفض في المقابل أن يقول الآخر تلك الحقيقة. فقدر اليهود يتمثّل في بقائهم نواةً صلبةً ترفض الذوبان، أي في بقائهم حضارة أمينة لنفسها. والحضارات كلّها هي في آن معاً فردوس البشر وجحيمهم.

4 ـ الإشعاعات الخارجية

يبقى أن نشير إلى إشعاعات الحضارات وعطاءاتها الملازمة أبداً لقوّتها وسيطرتها، فواقعة الهبة تنطبق على الأفراد انطباقها على المجتمعات والحضارات. وإن جلب العطاءُ الفقرَ وأفضى إليه على المدى الطويل، فإنه يبقى (العطاء) امتيازاً وعلامة تفوق ما دام ممكناً. هكذا بقي المتوسط قرناً كاملاً ما بعد كريستوف كولومبس وڤاسكو داغاما مركزاً للعالم ودنيا ساطعة وقوية. والدليل أنه، بقطبيه المسيحي والإسلامي، ظل يُربي الآخرين ويلقنهم فن العيش مرسلاً أضواءه بعيداً عن شواطئه. فإسلام شمال إفريقيا بقي يشع فوق الصحراء وصولاً إلى السودان. والإسلام التركي أضاء حيّزاً ثقافياً من البلقان حتى أعماق آسيا وصولاً إلى المحيط الهندي. والفن الامبراطوري العثماني الذي تمثل «السليمانية» (نسبة إلى سليمان القانوني، بانيها) تحفته، سطع بعيداً مؤكداً تفوق العثمانيين في فن العمارة الذي لم يكن إلا عنصراً في شبكة أكثر اتساعاً وشمولاً. أما إشعاعات الغرب المتوسطي فتبدو أكثر تميزاً، لأنه سار في اتجاه معاكس للتاريخ لتسطع إشعاعاته في الشمال الأوروبي الذي

سيصبح مركز القوة العالمية. فاللاتينية المتوسطية كانت بالنسبة لأوروبا البروتستانتية ما كانه اليونان بالنسبة لروما. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر اجتازت إشاعات الغرب المتوسطي المحيط الأطلسي فوصلت إلى أميركا. إنها إشعاعات الحضارة المسيحية المتوسطية المسمّاة، لتسهيل المسألة، حضارة الباروك، لكن هذه الإشعاعات تتجاوز من حيث الكمية والحجم إشعاعات النهضة بنت المدن الإيطالية. وفي اندفاعتها ارتكزت تلك الحضارة على القوة الروحية الهائلة للامبراطورية الرومانية وعلى القوة الزمنية للامبراطورية الإسبانية. وعلى نحو ما نتحدث عن طبقة جيولوجية يمكننا الحديث عن الباروك بوصفه طبقة فنية تنضاف إلى طبقات الفن الروماني والقوطي وفن النهضة. فالفن الباروكي بموضته وأنماطه القائمة على التكلّف والتصنّع والتقليد والمغالاة والفخامة والإثارة العاطفية، شعّ وازدهر فيما كانت النهضة تنهار وتتراجع بانهيارها، الأمر الذي حوّل روما إلى مدينة أبدية للعالم المسيحي. مدينة شعّ منها فن جديد اغتذى من دعاية الكنيسة الكاثوليكية وتبشيرها ضد البروتستانتية، كوسيلة صراع وتعليم قوامها توكيد قداسة مريم العذراء وتصدير صورتها، فضلاً عن توكيد قيمة القديسين وفعاليّتهم. وإذا كانت صور الموت والعذاب والشهداء هي التي طغت على ذلك الفن الجديد وفق أسلوب واقعي، فلأنه كان يبحث عن التفاصيل المأساوية التي تقنع المؤمنين وتجذبهم وتؤثر فيهم. لذا كان ذلك الفن فناً مسرحياً اغتذى من عيش وتدين متوسطيين. هذا من جهة روما. أما من جهة إسبانيا التي راحت تشع مروراً في فرنسا وصولاً إلى أوروبا المتوسطية، فإن إشعاعاتها نجمت عن قوة شعب وعن قوة امبراطورية هائلة وعن حضارة كانت أشد صفاء من الحضارة الفرنسية. لذا كان على كل فرنسي محترم أن يجيد اللغة الإسبانية، فيما كانت النساء في فرنسا يلبسن ويتزينَّ على الطريقة الإسبانية. وتأثير إسبانيا لم يقتصر على هذه الأمور وحدها، بل تعدّاها إلى الأدب وإلى غيره من مجالات الثقافة والاجتماع، خصوصاً في النصف الأول من القرن السابع عشر، أي عهد لويس الثالث عشر.

وعلى الرغم من أن تحديد هويّة الباروك تبقى خاضعةً للنقاش، فإن تلك

الحضارة، مهما تعدّدت ألوانها، كانت تسطع من قلب البحر الداخلي بفن عيشه وأذواقه، لتصل بعيداً عن شواطئه، مؤكدةً حضوره وقوّته. وهذا دليل على أن المتوسط لم يكن منهمكاً في أعقاب النهضة، على نحو ما يسود الاعتقاد، بل هو دليل على منعته وقدراته ودوره الأساسي في صياغة العالم الحديث وبنائه، منذ مطلع القرن السابع عشر.

